

علوم اللغة وعلم النفس اللغوي في علاقة تجاذب وتنافر - عرض موقف رومان ياكوبسون من المسألة -

أ.د. يوسف مكران
المركز الجامعي مرسلبي عبد الله - تيبازة - (الجزائر)
youcef.mokrane899@gmail.com

مقدمة

يمكن تناول موضوع علاقة "علوم اللغة وعلم النفس اللغوي" من خلال طرح عدّة إشكاليات ومن زوايا مختلفة ولأهداف متنوعة ذات مناح علمية وأخرى تعليمية، وفي إطار بحثٍ ابستمولوجيٍّ مؤسّسٍ وذو أبعاد عملية أصيلة. ويتمثل الطابع الإشكالي الذي استأثر بهاجسنا وأثار اهتمامنا في معالجة أمرين اثنين متناقضين في الظاهر ومتلازمين في الباطن؛ وهما ما يشكّلان مفارقة "التجاذبات والتنافرات" التي يهّم أن نعى بها في سياق هذين المجالين المتكاملين افتراضاً. وينصب العمل في حدود الإشكالية وصميمها بما يقضيه التنوّع في الرأي والمذهب، ويُعلي من شأن حقّ الشروع في الاجتهاد.

وقد كانت لنا فرصة الاطلاع على هذه الزاوية في كتابٍ لـ رومان ياكوبسون 1896 - 1982 (Roman Jakobson) هو: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة¹. لهذا يُلفينا القارئ نعمد - ههنا - إلى عرض موقفه من المسألة كما جاء في العنوان الفرعي بمعيّة ما أُلجأنا إليه البحث من ذكر أهمّ الباحثين الذين استدعتهم الإشكالية ذاتها ومستتهم القضية ولامسوها من نفس الزاوية.

ونشير - في الوقت ذاته - إلى أنّ أحسن تكريسٍ لمنظور ياكوبسون تكريساً عملياً قبل أن يقف عنده بالتأمل الصادر عن النظرة ابستمولوجية في كتابه القيم والسالف الذكر، هو الذي صاغه في الوظائف الستّ للغة² والمتمثّل في كشفه عن أبعاد كلّ عنصرٍ من العناصر اللغوية التي استكملت ما ورد في دروس اللسانيات العامة لدي سوسير وأطلق عليها لاحقاً اسم دائرة التواصل عند سوسير وخطاطة أو نموذج التواصل عند ياكوبسون بما ينم عن استيعاب ياكوبسون الجيّد لتلك العلاقة. كما يوحي العنوان بوجود علاقة تفاعل بين المجالين، وفي ظلّ هذه العلاقة المؤسّسة نتناول موقف رومان ياكوبسون، لأنه يمثل شخصه ومساره العلمي والمهني تقاطع هذه المجالات الرحبة والوافدة من أفقٍ شتى.

1 لماذا علوم اللغة ؟

نتطرق في هذا المقال إلى علوم اللغة. أو علوم اللسان إذا رغبتا في إرضاء بعض التوجهات لدى بعض الأخصائيين اللسانيين وغير اللسانيين - أكثر من حديثنا عن اللسانيات فحسب. ولدينا ما يُفسّر هذا الخيار غير المجاني: وهو كون لكل علم لغوي ظروفه الخاصة من حيث النشأة والتطور والتماس الذي يكون قد حصل بينه وبين علم النفس اللغوي على مدى ذلك التطور، وله ما يتدرّج به من مسوّغات الاحتكاك بهذا الأخير أو الابتعاد عنه. كما يتواجد لدى كلّ علم لغوي وجهٌ معيّن يجعله يدخل في علاقة متميّزة مع علم النفس اللغوي وكذلك مع غيره من الفروع المعرفية التي تشكّلت معها علاقات مامع التطور دائماً.

فتحليل الخطاب - مثلاً - يستمدّ من علم النفس اللغوي عناصر التحليل على قدر الحاجة الماسّة من حيث امتداد الخطاب نحو الفرد المستعمل وما قد يحتوي حكماً تقييمياً، ويعبّر عن عاطفة أو عن وجهة نظر. ما يصعب معه التبئير على العناصر المحايدة لأنّه يتضمّن جرعة معيّنة من الذاتية التي تزعم اللسانيات أنّها حريٌّ بها أن تستأصلها من دائرة موضوعها. قد نقول ذلك بكلّ اختصار - ليس أكثر ولا أقلّ. بينما يورد علم النفس اللغوي من مصدر البلاغة أيضاً ما يدعّم به تفسيره لبعض الاستعمالات اللغوية العبقريّة بتحليل علاقة اللغة بالواقع - مرّة، وبالرجوع إلى نفسية القائل المستلهمة والمتناصّة مع لغة الغير - من حين لآخر.

ثمّ إنّ القيام بتتبّع بسيطٍ لتطور النحو ومرحلة انعقاد الرابطة الوثقى بينه وبين علم النفس اللغوي، نجد أنّه حدث ذلك بصورة واضحة عندما استحوذت فكرة إقامة نظرية لغوية عامة استنجدت بمكاسب النحو التي خلفها على مدار عقودٍ من البحث والإثراء. وإن كان ذلك بادئ الأمر وفي ضوء النحو التوليدي متوقفاً على اللغة الانجليزية أصبح بفعل الافتراض والتفكير الديكارتي المعزّز لدور الحدس أمراً قابلاً للقياس على مستوى جميع اللغات في ضوء النحو التوليدي دائماً الذي كان له تأثيرٌ بالغٌ في توجيه البحث النفسي اللغوي على الرغم من أنّه يتّخذ من اللغة منطلق الدراسة كما يرى جانكارون (Jean Caron) في كتابه القيم (موجز في علم النفس اللغوي)³. وكان على حساب توقعات الباحثين باحتفال هذا الأخير بأعمال كلّ من كيلولي (Antoine Culioli) وتينيار (Tesnière) اللذين ينطلقان من إنتاج الكلام للغة وليس العكس. ذلك أنّ الأوّل هو بمثابة تطبيق نموذجٍ نظريٍّ بحث متكئ على عقيدة الملكة اللغوية، التي تعكس انتظامات واطرادات وقواعد عمل أنظمة (لغوية) يُفرض أن تكون مندمجة في المنتجات (الكلامية) الملموسة. يُنظر نتيجة ذلك إلى اللغة على أنّها نظامٌ مجردٌ يتكوّن من مجموع الأدلّة التي يمكن دراستها بانفرادٍ أو مترابطة؛ تبعاً للنظريات، والتطورات، والجوانب الصوتية والفنولوجية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية، والدلالية. بينما يؤكّد الثاني على إمكانية انطواء الفرد على ما من شأنه أن يستتبع استعمالات لغوية غير واردة مسبقاً. وهو النموذج الذي على الرغم من دنوّه الصريح من اهتمامات علم النفس اللغوي فهذا الأخير لم يلتمس خدماته إلّا في الفترة المتأخّرة وطالت مدّة تهميشه.

طبعاً لهذا التجاذب ما يبرزه وهو النجاح الذي تكّلت به النحو التوليدي في تفسيره لعملية اكتساب اللغة وهو وجهٌ بل مبحثٌ أثيرٌ ومأثورٌ في مجال علم النفس اللغوي علاوةً على قضايا تخص إنتاج الجمل اللغوية وإصدارها وكذا تلقيها وفهمها.

وفي هذا الإطار يمكن الاستشهاد بعلاقة متميزة بين علم من العلوم اللغوية وهو المضغوط في مصطلح (اللّسانيات الاجتماعية) - حسب إحدى الخيارات المتاحة والخاضعة للنقاش طبعاً ودوماً. إذ هناك ما يقيم حجةً دنو علم النفس اللغوي من أعمال هذه اللّسانيات الموسومة بالاجتماعية (أو علم الاجتماع اللغوي إذا رضينا بالاختيار الذي كرّسه أستاذنا الفاضل الدكتور محمد يحياتن - عليه رحمة الله ورضوانه)، بمفهومها الواسع كقسيم تابعٍ للّسانيات ومعنيٍّ بالعلاقات الرابطة بين اللّغات والمتحدّثين بها. لكن، في هذه الحالة بالذات، وهذا شاهدٌ على صعوبة استيمولوجية، يأتي تقديم مصطلح « التنوّعات » [variété] لتعيين الاستعمالات المنتظمة للبدائل (الجغرافية والاجتماعية وغيرها) المتعلقة بعرفٍ لغويٍّ ما [idiom]. وكذلك يحسن في هذا المقام أن يُحتفظ بتعريف فيشمان الذي يرى أنّ اللّسانيات الاجتماعية هي دراسة خصائص التنوّعات اللّغوية، وخصائص وظائفها، وخصائص المتحدّثين بها، آخذةً في الحسبان مدى تبادل هذه العوامل الثلاثة المستمرّ للتأثير والتأثر، ومدى تغييرها في نفسها وتغيير بعضها البعض داخل مجموعة لغوية معيّنة.

وكذلك أصبح الكلُّ يعي فضل اللسانيات على كلّ من التعليميات وقبلها البيداغوجيا التي تتصارع هي الأخرى مع ما يُدعى علوم التربية (لعلّ أحد المداخلين سيعالج ذلك في هذا اليوم الدراسي). فالعلاقة المتبادلة ما بين اللّسانيات والبيداغوجيا قد نوّه بها عنوانٌ لكتاب ألفته (Denis Sadek-Khalil) وهو Apport de la linguistique à la pédagogie: et apport de la pédagogie à la linguistique أي (فضل اللسانيات على البيداغوجيا وفضل البيداغوجيا على اللسانيات): حيث تعزّز اختيارها بالاستناد إلى من اختبر هذه العلاقة طيلة عمله التعليمي والبحثي وهو غوستاف غيوم (Gustave Guillaume)، فترى انده لا يمكن مثلاً القيام بمعالجة اضطرابات اللغة بدون الحصول على وصفٍ دقيقٍ للغة موضوع الاضطرابات والأمراض الكلامية أو التأخر في اكتساب اللغة في الفصل الأول (Quelques principes généraux de la rééducation du langage)⁴. فهل يمكن أن نتحدّث عن البيداغوجيا اللغوية ما قد يُترجم إلى العربية خطأً بعلم التربية اللغوي أو باختصار التربية اللغوية وهو قد يشوّه ما كانت تقصده من تلكم العلاقة التي باركت فيها كونها عاجلتها أحسن معالجة إذا لم تتوقع في زاوية واحدة تنظر منها بل فضّلت الحركة من زاوية إلى أخرى تنتقل في جسر بين ضفتي اللسانيات والبيداغوجيا تما كما سر مع علم النفس اللغوي واللسانيات وكما جاء عند جان كارون.

ويمكن ترجمة هذه الإشكالية أيضاً تحت تسميات (التعايش والصراع)، وهما المصطلحان اللذان وظّفهما رومان ياكوبسون في كتابة (الاتجاهات)، ذلك أنّ علوم اللغة التي كانت ترضى بأن تكون اللغة موضوعاً قسماً بين عدة فروع لغوية كلّ منها يلتفت إلى المجال الذي يهتم الجانب اللغوي الذي يُعهد إليه ذلك الموضوع، التداولية = أفعال الكلام في الفلسفة التحليلية، الأسلوبية الشكلانية الأدبية. وفكرة التعايش قد طُبِّها على تعايش التنوعات اللغوية ضمن ذات السجل اللغوي، حيث بحث كثيراً في التعايش بين الشرق والغرب. طبعاً كلّ هذا سَنرجع إليه أدنا مع التجاذبات والتنافرات.

2 التجاذبات ومجالاتها

فبالإضافة إلى ما ورد سابقاً في تحليل استخدام علوم اللغة، يمكن أن نَعتمد إلى قراءة العلاقة من ناحية التجاذبات، حيث نشير - أولاً - إلى أسباب صيغة الجمع؛ ذلك أنّها متنوّعة زماناً ومكاناً وهي بين مدّ جزر، وكذلك التنافرات التي تحدث لظروفٍ ولأزماتٍ كما جاء في الملخص.

نبدأ من العلاقة المتعارف عليها في مجال اللسانيات التطبيقية - وهي أهم ما يُقيم شرعية التجاذب الحادث حتماً في أوضح صوره. وكذلك هي التي قد تعيدنا إلى تبرير تسمية بعض الباحثين المجال الذي يعنينا هنا وهو (علم النفس اللغوي) باللسانيات النفسية أو علم اللغة النفسي أو حتى علم اللسان النفسي، متخذين اللسانيات أو علم اللغة منطلقاً أو الأصل المنعوت بنعت (النفسي) في هذا المركّب النعتي السليم لغوياً (ولكن لا ندرى هل هو سليمٌ مفهوماً؟)، وهو مذهب أخطر ما فيه - في الحقيقة - أنّه يقلِّب الأمور رأساً على عقب وبجرأة فاحشة دون المرور من التبرير.

1.2 في ظلّ اللسانيات التطبيقية

والعلاقة المنوّه بها سالفاً هي الماثلة في اعتبار هذه الأخيرة (أي اللسانيات التطبيقية)، وبالتالي علوم اللغة) - أولاً - كخادِمة مجالاتٍ معرفيّةٍ أخرى، مثل علم النفس والبيداغوجيا، وعلم الاجتماع وحتى الفيزيولوجيا وغيرها من فروع العلوم البيولوجية بل والدقيقة كذلك.. الخ. إذ يتمّ انتقال عبر اللسانيات التطبيقية - وفي ضوء تشعُّب المشارب المعرفيّة - معطياتٍ لسانيةٍ لا بدّ أنّها اقترنت بمعطيات سيكولوجيّة التعلّم وتناسبت مع طرائق التعليم الخاصّة⁵، وفي ذات الوقت كانت اللسانيات النظرية تسخر تلك المجالات في إطار انشغالها التطبيقيّ، مما اقتضى لهذا التوجّه هذه التسمية (اللسانيات التطبيقية) باعتبارها جامعة للمواد العلميّة التي تغرف من اللسانيات الزاد النظري والمنهجي وتقوم بتكييفه لمشكلاتها الطارئة. ولتوضيح هذا كلّه يجوز النظر إليها من خلال هذه زوايا: فما يجري في العُرف هو أن يُقَابَل بين ما هو نظريّ خالص وما هو تطبيقيّ إجرائيّ، لكن ليس هناك اتّفاقٌ حول مفهوم التطبيق.

فيبدو لنا أنّ المادّة التطبيقية تختصّ بتداخل ثلاث خصائص: تستجيب المادّة التطبيقية لمتطلبات اجتماعية (حاجات جلّية: الترويض على التكلّم الخاص بالمصابين بأمراض الكلام، التعليمية والتربية الخاصتين بلغة الأم، صناعة المعاجم). تجمع ما بين مفاهيم ومناهج مختارة ضمن مجالات علمية وتقنية مختلفة حيث تستعير منها ما تفتقر إليه من تلك المفاهيم والمناهج وتمنح لها أفكاراً ووجهات نظر هي من مكتسباتها. تقوم بحلّ مشكلاتٍ طارئة وفق نتائج هي ملكٌ لها، إلى جانب وصف حدودها وتفسيرها وتعليلها.

فهكذا يمكن في ظلّ التجاذب هذا الواعي - أو غير الواعي - أن تُقرأ العلاقة قراءة أخرى بحيث يُصبح علم النفس اللغوي هو ما يستدعي تدخّل علوم اللّغة كما يستدعيها من العصبية، ومن علم النفس الإدراكي المعرفي، وكذا العصبية الحيوية، الخ. إن الاستعداد الذي ينطوي عليه البشر للتواصل يستدعي تمكين عدة كفاءات بعضها نفسية عصبية وأخرى لغوية. وهناك من اهتمّ برصد إسهامات علم النفس اللغوي في تطوير علوم اللّغة هذه المرّة⁶. ووقع علم النفس اللغوي بين فكيّ الشمولية العصبية والفردية الجماعية هو بالضبط ما يقرب بينه وبين اللسانيات التي قالت بوجود خصائص عامّة - على غرار تشومسكي - والخصائص الفردية والمنفردة. ففي كلا الأمرين لعلم النفس اللغوي كلمته. وكذلك يمكن أن تُقتسم علاقة التجاذب والتنافر في آنٍ بين المجالين، في ظل اهتمام العلوم اللغوية باللغة وعلم النفس اللغوي بالتواصل، ولكن اهتمام هذا الأخير بالتواصل من وجهة نظر السلوكيات الفردية والجماعية الذي ينشأ عنه العرف اللغوي.

2.2 دائرة التبليغ وخطاطة التواصل

1.2.2 في اختلاف المقاصد

يمكن جذب الانتباه إلى أنّ الرجلين (دي سوسير وياكوبسون) في رسمهما للمخططات التبليغية التواصلية اللغوية يختلفان في الأهداف والمقاصد، فبينما كان دي سوسير يرمي إلى عزل أهم المستويات اللغوية اللسانية كالمستوى الصوتي والصرفي والمعجمي وصلاحيات كلّ مجال وحظّه من المستويات المذكورة نجد روما ياكوبسون قد عرض العناصر للتوسّع. فصار ما يُدعى اليوم نموذج ياكوبسون التواصلية التفاعلية.

2.2.2 دائرة التبليغ السوسيرية:

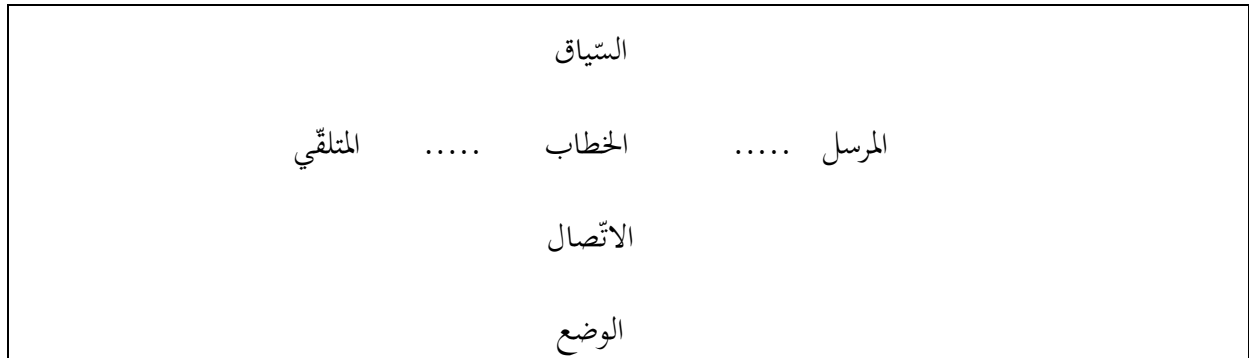
إنّ دائرة التواصل - أو التبليغ (الإبلاغ) - كما بيّنها دي سوسير قد أقحمت العنصر البيولوجي، أي المرسل الذي يتكلم - أولاً - ما سمعه سابقاً (ثمّ يستمع)، وهو يتلقّى - بالتناوب - من المتلقي الذي (يستمع) ويسمع - هو الآخر - ما يتكلم به المرسل.

فهي مسارات بيولوجية، ولكن يبدو أنّ اللغات في النزوع إلى التنوع والاختلاف، وبناء على هذا المعطى طور ياكوبسون دارة دي سرسير إلى ما أسماه خطاطة الوظائف الست. بينما يهمد دارة سوسير في التبليغ وتبادل الفكر وتحديد مستويات الدراسة اللسانية تضطلع خطاطة ياكوبسون بمهمة.

3.2.2 نموذج ياكوبسون التواصل التفاعلي

فمن هذه الناحية تظلّ وظيفة التبليغ أساسية إلا أنّها معتبرة لتنوّع وظائف اللغة. ولتقديم فكرة عن هذه الأخيرة رأى رومان ياكوبسون ضرورة السّبق بتبيان العناصر المكوّنة لكلّ إجراء لغويّ ولكلّ فعل تبليغيّ شفويّ. وهي المتمثلة في الشّرح الآتي:

بيث المرسل خطابا يتلقاه المتلقّي، ولكي يصبح ذلك الخطاب إجرائيًا حقًا لا بدّ أن يحظى بسياق يحيل إليه، ويقول عنه ر. ياكوبسون: « هو ما يطلق عليه ” المرجع “ وذلك في مصطلحيّة مبهمة شيئًا ما »⁷. و تكمن أهميّة السّياق في كونه أمرا من شأن المتلقّي أن يمسك به، وهو إمّا أن يكون شفويًا أو كفيلا بأن يُشافه عنه. ثمّ يكتسب الخطاب وضعًا مشتركًا في كليته أو على الأقلّ في أجزائه بين المرسل والمتلقّي (أو بتعبير آخر، بين منمّط⁸ ومفكّك⁹ ذلك الخطاب). وأخيرًا يكتسب الخطاب اتّصالًا أو قناة تضمن الحضور النّفسيّ والتّجاوب بين المرسل والمتلقّي، هو ذلك الاتّصال الذي يسمح لهم بالاحتفاظ على عمليّة التّليغ. يمكن تمثيل هذه العناصر التي لا بدّ أن تتواجد في عمليّة التّليغ في المرسومة الآتية¹⁰:



فيتولّد عن كلّ واحد من هذه العناصر الستة وظيفة لغويّة متميّزة لا يتّسع المقام لعرضها هنا. لكن يبقى التّحكّم في قوانين الخطاب وفي أجناسه هو من المكوّنات الأساسيّة لملكتنا التّواصلية، أي قدرتنا على خلق الملفوظات وتأويلها بصورة تنسجم والحالات العديدة المحيطة بوجودنا. لا تخضع هذه القدرة لتعلّم بيّن، إمّا نتلقاها عن طريق تمثّلها، في الوقت نفسه الذي نُلَقّن فيه أنواعًا من السلوكات في الوسط الاجتماعيّ.

4.2.2 قراءة في ضوء علم النفس اللغوي

إنَّ علم النفس اللغوي هو ذلك القسم العلمي والعملية الذي يدرس دراسة علمية العلاقة بين البنى اللغوية والعمليات النفسية التي تتدخل في إنتاج الكلام اللغوي وفهم المعاني المتضمنة في المقاطع الجمل اللغوية من الكلمات والمقاطع الصوتية والتسلسلات. يمكن أن نتساءل عن أسباب إقبال علماء النفس على تناول موضوع اللغة وعلومها والالتفاف حول الدرس اللساني بكلِّ أقطابه وفروعه. وأهم المحاور التي تستدعي الوقفة اللسانية النفسية، نذكر:

- التمثّلات الذهنيّة، دور اللغة في النماء الفكري، والتعبير
- وسم البشر من قبل اللغة (إحياء مقولة الإنسان ناطق)
- قاعدة لعلاج نفسي والتقابلات النفسانية

هذا، ويظلّ نموذج ياكوبسون التواصلي، يركّز على الوظيف المرجعية (نقل المعلومات حول العم المحيط، ولكن يستدعي التمثّلات تالذهنية للواقع والتصورات النفسية والاجتماعية (الفكر واللغة) وكذلك التفاعلات التي تحدث بين المكتخاطبين في الوسط الاجتماعي الفلاني. التأثير على الغير وعلى الأفرات الوظيفة التعبيرية التأثيرية، بلا ترسم مواقف الناس تجاه اللغة وظيفة اللغة الواصفة حيث تصبح اللغة هي الكلام والخطاب والحوار، الكلمة معزولة لا معنى لها كما أورد أزوالد ديكر، في كتابه: قلّ أم لا تقل. وقد نفهم الشيء الذي حمل ياكوبسون إلى العناية بعلم النفس اللغوي هو تفسيره للتحويلات اللغوية التي أسندها إلى محرّكين هما، استقلالية النظام اللغوي والعوامل الفردية لأسباب نفسية واجتماعية. من هنا جاء تأثير ياكوبسون حتى في اللسانيات الاجتماعية، الذي لو نُعمل محرك البحث سيُقدم لنا اسمه على صفحات تغلب تلك صفحات لا بوف أو غيره لأنه احتفل به في هذا المقام.

3 التنافرات ودواعيها

1.3 بدواعي التصنيف

وتعود مشكلة تصنيف اللسانيات إلى الواجّهة وفي ضوء هذه العلاقة. كما حدث مع سوسير وغيره من قبله ومن بعده مع علاقة اللسانيات بالسيمولوجية وما هذا إلا لوفود عناصر تعريفية تصنيفية جديدة أهمها وأقدها التواصل واعتبارات فردية واجتماعية وتاريخية وجغرافية بل اقتصادية وإعلامية ومعلوماتية وعصبية ومرضية الخ من الخصائص المحيطة. فهذا راستي يتساءل هل اللسانيات علم من العلوم النفسية المعرفية.

ومن المفارقات التي يجدر تسجيلها بدءاً في سياق تناولنا لمفهوم التنافرات الواقع بين المجالين، هي أن هذه الأخيرة أي التنافرات تحدث عن وعي وعن جهل وعن التجاهل الواعي. عن وعي قد يكون بسبب التعصب المبرر من الناحية المنهجية، أو بالأحرى الغيرة على العلم، وهو ما حدا سوير حينما نادى باستبعاد الهم النفسي في الدراسة اللسانية للغة، هم منهجي أكثر منه مجر التخوف من إقبال النفسانيين، والتضلل الذي يُرفق ذلك، وقد سجّله جورج مونان بالنسبة لمقاربة الدرس اللساني أي المبتدئ الذي يتناول مباحث لسانية ويرغب في التكوّن في المجال وينال حظّه من العلم الناشئ، فكأنما وهو في ذلك الطور يخشى على العلم وعلى المتفقيه أن يضعاً معاً في لجج الترهات النفسية التي تعالج الفرد والتواصل في علاقته مع الأفراد، ..الخ. وهو من تناول من الخارج، وقد سمي هذا التوجّه الذي تجلّى فيه التنافر بالحايثة اللغوية اللسانية، أي استبعاد العوامل والمظاهر غير اللغوية في الوصف الدراسة وصف اللغة ودراسة عملها، وهو ما ينفكّ يرجع تحت عناوين بحثيّة شتى، نظراً للمقام المخصص للغة الفردية ولل كلام بالدرجة الأولى، وكذا للغة لكونها تُفرض على الفرد، كذا اللسان البشري على أنه الملكة الكامنة ..الخ وكلها عناصر وجوانب لا يمكن لعلم النفس (اللغوي) أن يقبّع مكتوف الأيدي دون حراك تجاهها. وعن وعي وتجاهل في آن: ذلك أن الدليل هو خوض علماء النفس في كلّ شيء ما عدا اللغة في ذاتها ولذاً المبدأ المؤسّس لفردة موضوع اللسانيات.

2.3 بحجة تحديد التوجّهات الجديدة

يرى رومان ياكوبسون أنّ شعار محاربة النزعة النفسانية إنّما يقوم على بضعة أخطاء في الفهم. وقال وعندما لجأ اللسانيون المشايخون للظاهراتية إلى شعارات مناهضة للنزعة النفسية¹¹. ورومان ياكوبسون لا ينفكّ يقابل ما بين اللسانيين والنفسانيين، نلاحظ ذلك في أقول كما الآتي:

« يمكن للمرء أن يلاحظ نقاط التماس والافتراق بين بحث فردنا ندي سوسير (1857 - 1913) وبحث كلاباريد (1873 - 1940) الذي أدرك أنّ ” طريقة وجود أيّ عنصر تعتمد على بنية المجموع، وعلى القوانين التي تحكمه “. ويتذكّر المرء أيضاً المناقشات المثمرة بين تروبتسكوي (1890 - 1938) وكارل بوهلر (1879 - 1963)، والعناية الجديدة التي بذلها لسانيو العالم لتطوير علم النفس الجشطالتي. وما يبدو أنّه سيظلّ ذا طابع تنويري هو تحذيرات الخبراء الأمريكيّين في العلاقة بين اللّغة والذهن وهما إدوارد سابير (1884 - 1939) ووورف (1941 - 1997)، تلك التحذيرات الموجهة للجشطالتيين الذين قالوا إنّّه بقدر تعلّق الأمر باللّغة يجب ” إغفال المسألة “ ما داموا ” لا يملكون الوقت، ولا التدريب اللّساني المطلوبين لاكتشاف خفايا هذا الحقل “، وما دامت أفكارهم ومصطلحاتهم الموروثة عن علم النفس المختبري القديم هي أفكارٌ ومصطلحاتٌ معيقة أكثر منها نافعة “ (292). وبطريقة مشابهة، توقّع سابير - رغم أنّه كان واعياً بأنّه من المحتوم على اللّسانيات أن تكون

لها قيمة خاصة بالنسبة لعلم نفس الصورة [أو الشكل] ¹² - أقول إنّ ساير توقع أن ” الدمج المثمر للسانيات بالدراسة النفسية إنّما يقع في المستقبل “؛ لأنّ حقل اللسانيات هو واحدٌ من أعقد حقول البحث بالنسبة لعلماء النفس (243). وأخيراً من المؤكّد أنّ صلاتنا بما يسمّى بمدرسة براغ لعلم النفس، ومؤسّسها فون إهرنفلز (1932 - 1959) - وهو أوّل من اقترح مفهوم الجشطالت - تركت أثرها على تقدّم حركة براغ اللسانية ¹³. ويستجلي الأمر على المستوى المصطلحي وما يمكن له أن يوقع في تخطيط جراء تداخل الصلاحيات.

ويوجد مراعاة لعنصر الزمن عند كلّ من ساير ودي سوسير، كأنّ الإثنين ينظر على المدى البعيد ولديهم مظرة شاملي إلى الموضوع وما ينمّ على اطلاع على علم النفس واللغة معاً، فالأول يرى - كما يورد رومان ياكوبسون - أنّ علم النفس سيشهد عودة ويحتضنه اللسانيون في المستقبل، وردّ عن ياكوبسون أنّ « ساير توقع أن ” الدمج المثمر للسانيات بالدراسة النفسية إنّما يقع في المستقبل “؛ لأنّ حقل اللسانيات هو واحدٌ من أعقد حقول البحث بالنسبة لعلماء النفس (243). وأخيراً من المؤكّد أنّ صلاتنا بما يسمّى بمدرسة براغ لعلم النفس، ومؤسّسها فون إهرنفلز (1932 - 1959) - وهو أوّل من اقترح مفهوم الجشطالت - تركت أثرها على تقدّم حركة براغ اللسانية ¹⁴. وعلى الرغم من أنّ بلومفيلد كان الأب الروحي لذلك الاتجاه ولكنه لم يكن يشارك في تلك الآلية التي لا تنطبع بالعوامل النفسية ¹⁵.

هذا وبطلّ رومان ياكوبسون أهمّ من شكّل الوجهة التي أطلّ منها كلّ من كلود ليفيس ستروس ولاكان من عوالم مختلفة نحو البنيوية الشكلانية منها وغيرها، أكثر مما كان عليه سوسير. يُقدّم على أساس أنّه مؤسّس الشكلانية البنيوية وبالتالي وريث دروس سوسير، ولكنه طوّر وجهاً آخر من القضية تحلّى بروح نقدية صارمة تجاه الدروس وانتقد الكثير من المفاهيم المتضمّنة فيه، (كالدليل اللغوي، والاعتباطية، الخطية، اللغة، التزامنية الخ). والترم الصمت حول بعضها كالقيمة، ووضع مفهوماً لم يُطلقه سوسير أو سكت عنه، كمفهوم الوظيفة، ما جعل من نموذج يقبع في طريق متواصل بين البنية والوظيفة، فهو نموذج ثنائي كما يغلب عليه في مجالا الصوتيات الوظيفية الملايح الثمانية التي وضعها في إطار نشاطه مندمجاً في حلقة براغ. ويتأسّس مشروعه في خطّ الأصول والخلف، هو في حدّ ذاته يُشيد بعالم يشكّل حلقة وصل بين الدرس اللساني والدرس النفسي، وهو بوهلر. إنه منبع، مع ترويتسكوي، للصوتيات الوظيفية، الأب الشرعي التي تشكل مصيراً جميلاً وفضلاً معتبراً لنظرية النحو التوليدي.

خاتمة

وخلاصة القول فالموقف الذي يُحتمل عدم التغاضي عنه في هذه العجالة الاستعراضية المبرّرة لصيغة الجمع (علوم اللغة)، وللتجاذبات والتنافرات المزعومة، هو إمكانية التخلّص من منطق التجاذب والتنافر، بحيث يُنظر إلى علم النفس اللغوي أنه يعنى بنى هي ليست ذهنية خالصة ولا خارجية كاشفة بالمطلق ¹⁶، إذ تقف بين هذه

وتلك، فهذا ما يؤصّل الدرس النفسي اللغوي أو اللغوي النفسي، كفانا التلاعب بالألفاظ والاحتكام إلى قضايا التقديم والتأخير وإهمال أهم خاصية في اللغة - وهي التي ينبغي تحقيقها في لغة الاختصاص - وهي خاصية الاعتبارية اللغوية، لأنّ التعليل دروبه وعرة يُبرِّ كلَّ خيارٍ ويفعّل كلَّ نزوع ولو كان مصطنعاً لا أساس له في الواقع، إنّ الدرس الذي سنستفيدة من معالجة ياكوبسون لأمر التجاذبات والتنافرات غير مقصودة لذاتها إنّما نزل إلى الميدان وكان عملياً في معالجته حيث ذكر المؤسّسين وبحث في رؤاهم وما طرحوه من المفاهيم، فغلب خيار علم النفس اللغوي رجّح كفة تبادل التأثير والتأثير بين اللسانيات وعلم النفس اللغوي، وكذا بين هذا الأخير وعلوم اللغة جمعاء قبل ذلك كلّه.

هوامش ومراجع

- ¹ يُنظر: رومان ياكوبسن، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط.1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2002.
- ² يُنظر: Roman Jakobson, Essais de linguistique générale : Les Fondations du langage, T.1, Trad. de l'Anglais par Nicolas Ruwet, Coll. Arguments, Ed. Minuit, Paris, 1963, p.213.
- ³ يُنظر: Jean Caron, Précis de psycholinguistique, 2^d éd. PUF (Coll. Psychologue), Paris, 1992.
- ⁴ يُنظر: Denis Sadek-Khalil, Apport de la linguistique à la pédagogie: et apport de la pédagogie à la linguistique, Ed. du Papyrus, 1997, p.02-12.
- ⁵ يُنظر: Denis Girard, Linguistique appliquée et didactique des langues, Ed. Armand Colin, Paris, 1972, p.23-24.
- ⁶ يُنظر: daniel Dubois, Contributions de la psychologie aux sciences du langage, histoire épistémologie langage, 1989.
- ⁷ يُنظر: Roman Jakobson, Essais de linguistique générale : Les Fondations du langage, T.1, Trad. de l'Anglais par Nicolas Ruwet, Coll. Arguments, Ed. Minuit, Paris, 1963, p.213.
- ⁸ يُنظر مقابل (Encodeur): عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات: عربي - فرنسي، فرنسي - عربي (مع مقدّمة في علم المصطلح)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص.224.
- ⁹ يُنظر مقابل (Décodeur): عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات..، ص.230.
- ¹⁰ يُنظر: Roman Jakobson, Op. cit., p.214.
- ¹¹ يُنظر: رومان ياكوبسن، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط.1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2002، ص.24.
- ¹² الصورة أو الشكل هنا بمعنى الجشطالت - كما لاحظ المترجمان.
- ¹³ رومان ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة..، ص.25 - 26.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص.26.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص.26.

Jean Caron, Précis de psycholinguistique, 2^d éd. PUF (Coll. ¹⁶ يُنظر: Psychologue), Paris, 1992, p.230.